

الباب الثالث

المجتمع الإسلامي

- أولا : مجتمع الاسلام .. بناؤه وتطوره :
- ثانيا : تكافل الجماعة الاسلامية :
- ثالثا المرأة في الاسلام :
- رابعا : مجتمع الاسلام بين الماضي والحاضر
- خامسا : من مقومات المجتمع الصالح :
- سادسا : العادات الشعبية :
- سابعا : اعيادنا :
- ثامنا : الى الشباب :

obeikandi.com

الفصل الأول

- الفردية او الوجود الفردى فى الاسلام .
- الاحتفاظ بشخصية الفرد فى الجماعة .
- ايجابية الاسلام فى توجيه الفرد .
- تبادل الشعور بين الفرد والجماعة
- وحدة الجماعة .
- تماسك الجماعة .
- الميل الاجتماعى وطريق نمائه .

obeikandi.com

الفردية أو الوجود الفردي في الإسلام

الإنسان لو ترك وطبيعته يسير في طريقها دون أن يلزم نفسه بتوجيه معين — لسار حتماً إلى غاية لا يتخلف عنها أبداً. وهي: أن يكون أنانياً يحب ذاته ، ويميل لنفسه فقط ، ويتصور الوجود كله وفقاً عليه ، والحياة الإنسانية خاصة به . ولا تحد أنانيته ، ولا نهاية لرغباته : إن حصل على شيء منها أمسك به عن غيره ، وإن فاته الحصول عليه غضب وقلق .

ذاك لأن ذاته في تصور نفسه مركز هذه الحياة ، كل ما فيها يجب أن يدور حول نفسه ، وأن يكون له وحده دون غيره . ونتيجة هذا التصور أنه لا يقر لغيره بحق العيش في الحياة معه .

ونتيجة أنانيته إلى هذا الحد أن يسيطر عليه الخوف الأبدي من أن يفقد شيء مما في يده ، ويستولى عليه الحزن الشديد إن فاته عرض من أعراض الدنيا ، ويخاصم غيره خصومة عنيفة على امتلاك متع الحياة . وإذن عيشته : خوف ، وحزن ، ونزاع ، وإذن حياته قلق واضطراب ، لا طمأنينة فيها .

وهذه مظاهر تحكم الفردية في سلوك الإنسان ، وهي بذاتها دائرة الوجود الفردي الذي يعيش فيه الإنسان ، ذلك الذي لم يوجه توجيهاً جماعياً ، يجعل منه ومن غيره جماعة وأمة .

الإسلام لا يرضى عن هذه الفردية ، ويراها فردية منحرفة لأنها لا توصل إلى سعادة الإنسان نفسه ، ولا إلى قيام جماعة منه ومن غيره . ولهذا يحرص كل الحرص على أن ينشئ الإنسان على الإيمان بالله ، دفعاً له على الخروج من هذه الدائرة الفردية الضيقة ، وبالتالي دفعاً له على الخروج من هذا الحرج النفسى الأليم . والإيمان بالله ليس كلمة ينطق بها المؤمن ، بل هو عهد يعطيه الإنسان لله جل وعلا :-

وجمل هذا العهد أن يعيش لنفسه وغيره ، ويقر إقراراً نفسياً بأن له حقوقاً وعليه واجبات . له حقوق تندر ما يبذل من نفسه في سبيل معاشريه وجماعته العامة ، وعليه واجبات بقدر ما يعد نفسه إعداداً يجعلها تعرف في وضوح أنها ليست وحدها في هذه الحياة ، وإن مشاركتها في هذه الحياة لهم حقوق قبلها يتعين أداؤها .

والمؤمنون بالله إذن: أولئك الذين لم يدعوا لنداء الطبيعة الإنسانية الفجة، فلم يعيشوا لأنفسهم وحدهم ، ولم يمشوا في الحياة لتحقيق مآربهم الذاتية الخاصة ، دون غيرها .

والمؤمن بالله عندئذ إنسان آمن على نفسه الخوف ، وحال بينها وبين المهم والحزن ، وجنبها الضمومة والنزاع . هو المطمئن في سعيه لأنه يقصد وجه الله فيما يسعى ، وهو الناجح في هذه الدار لأنه استطاع أن يتغاب على نزوات نفسه ، وهو الناجح في الدار الآخرة لأن الله لا يخلف وعده المؤمنين . يقول الله جل شأنه : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (١) .

والقرآن الكريم وضع حال الإنسان إذا اتقاه لطبيعته الأولى ، فيقول سبحانه : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرَّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا » (٢) . كما وضع حاله في إذا آمن بالله وأخذ نفسه بميثاق الله ، فاستنزه من طابع صاحب الحالة الأولى ، فقال : « . . . إِلَّا الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » (٣) .

ويروى عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) المؤمنون : ٨ - ١١ (٢) المعارج : ١٩ - ٢١

(٣) المعارج : ٢٢ - ٢٧

« عجباً لأمر المؤمن ، ان امره كله خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن : ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

— فالرسول عليه الصلاة والسلام يصور حال المومن بأنها حال الاطمئنان والاستقرار . وتلك حال خيرة ، بعيدة عن الألم والانزعاج ، بالقيس إلى حال الانسان المسترسل وفق نزواته وغرائزه ، الأنانى فى مسعاه ، والفردى فى إتجاهه ، وهو ذلك الإنسان الخائف الحزين ، القاق .

الإسلام يؤمن بالفرد ، ولكنه لا يؤمن بالفردية . وهو فى حال إيمانه بالفرد يؤمن بحقيقة موجودة . وفى حال إنكاره للفردية يرغب فى تجنب الفرد مخاطر الفردية التى تتمثل فى الخوف الدائم ، والحزن الدائم . وعلى هذا الأساس يشجع الإسلام نشاط الفرد فى أى جانب من جوانب الحياة ، وحرية فيما يرى وفيما يعبر . ولا يحد نشاطه الفردى وحرية الفردية — فى نظر الاسلام — إلا فى إيدانه لغيره فى جماعته . وعلى هذا الأساس لا يقر الإسلام كيفية نشاط الفرد وحرية ، وذهابه كلية فى جماعته ، كما لا يقر أن تؤمن جماعته عن طريق انحرافه فى فرديته .

الاحتفاظ بشخصية الفرد في الجماعة

الفرد والجماعة :

الجماعة المسلمة ليست شيئاً وراء أفراد المسلمين ، هي الأفراد جميعاً في صلوات بعضهم ببعض وجودهم كحقيقة ، مستمد من وجود الأفراد كحقائق قائمة مشاهدة . ولم يعرف القرآن الكريم في أوامره ونواهيه ، وفي وصاياه العامة : الجماعة المسلمة جيدة عن المؤمنين أنفسهم .. بعيدة عن ذواتهم وأشخاصهم . يقول الله تعالى : « الله ولى الذين آمنوا يخزجهم من الظلمات إلى النور^(١) » .. ولا شك أنه يقصد بالولاية هنا - التي هي التولى والتدبير والحماية - الجماعة المؤمنة . ولكنه في إعلانه هذه الولاية أعلنها لهذه الجماعة في أفرادها بصيغة الجمع وهم الذين آمنوا . وكذلك عندما يوجه أمراً أو نهياً عاماً كما في قوله تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً^(٢) » .. يوجهه إلى المؤمنين كأفراد في صيغة الجمع . وكذلك الشأن عندما يخبر عن حال عامة ، يخبر عنها مسندة إلى الأفراد مجتمعين . كما في قوله تعالى : « والذين يؤدؤن المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً^(٣) » .. وقوله : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

علاقة الفرد بالجماعة :

وإذا كانت الجماعة المسلمة ليست وراء أفرادها ، وإنما هي الأفراد بينهم وأشخاصهم - كانت علاقة الفرد بالجماعة ، هي نفسها علاقة فرد ببقية الأفراد الآخرين معه . والفرد لم يبلغ إذن ، والفرد باق بكيانه الشخصى المستقل . ووجوده كفرد وكوحدة بذاتها لم يس ، وكل ما جد له من الجماعة التي هو عضو

(٢) النحل : ٩١

(١) البقرة : ٢٥٧

(٣) الأحزاب : ٥٨

فيها - أنه قد أضيفت إليه اعتبارات خاصة بحكم هذه الجماعة ، وهي اعتبارات الروابط المتبادلة بين كل فرد والآخرين معه في الجماعة . وهي اعتبارات الواجبات التي تؤدي من قبل الفرد نحو الآخرين معه ، والحقوق التي تعطى له من هؤلاء الآخرين معه ، وهي واجبات عليهم أيضاً .

والفرد في الجماعة المسلمة طالما لم يمس كيانه كوحدة بذاتها ، مستقل في التصرف يتمتع بإرادة حرة ، وبحرية في التملك . ولاستقلاله وحياته حرمة شخصية ، لانه لا يتردد . ولا نزول .

ولكن - لأنه قد أضيفت إلى وجوده الشخصي الفردى اعتبارات خاصة بحكم الجماعة التي يعيش فيها وبشترك مع أفرادها في الغاية العامة ، ويكون بمضويته جزءاً من كيانه العام - ليس استقلاله في التصرف استقلالاً مطلقاً وايست حرية إرادته حرية كاملة ، وليست حريته في حق التملك مطلقة ، وبالتالي ليست حرمة الشخصية حرمة على الإطلاق .

الفرد مع الأفراد الآخرين ، أو الفرد مع الجماعة - من وجهة نظر الإسلام - وحدة تتفاعل مع غيرها ، وتأخذ وتعطي ، وتتوقف عن التصرف . لها استقلال مقيد ، وحرية مقيدة . والفواصل التي تحدد استقلال الفرد في الجماعة المسلمة في التصرف والتملك على السواء هي الفواصل التي بين الحلال والحرام . و « الحلال يبين والحرام يبين » . إذ الحلال هو ما يمثل النفع الفردى أو النفع العام ، هو نفع الآخرين مع الفرد في الجماعة . والحرام بالعكس هو ما يمثل الضرر الفردى ، أو الضرر العام ، وهو ضرر الآخرين مع الفرد في الجماعة .

وإذن استقلال الفرد محدود بحدود علاقته بالآخرين . فإن تجاوز في تصرفه وتملكه دائرة النفع ، فتصرفه وتملكه عندئذ غير مشروع . والفرد حينئذ يجب أن يرد إلى دائرة النفع ، وبمحال بينه وبين الإضرار بالآخرين إضراراً أدنياً أو مادياً . وهنا يكون دور الحكومة والولاية العامة .

استقلال الفرد في الجماعة الإسلامية لا يلقى إذن بعلاقته بالآخرين . ولكنه يحد فقط . فالمرأة بزواجها لا تفقد هذا الاستقلال في التصرف والتملك ، ولا تفقد الحرية فيما ترى وتعتقد . حتى في مهرها الذي هو نحلة وعطية من زوجها إياها لا يجوز استرداد جزء منه إلا عن رضا واختيار منها : « وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكَأُوهُ حَنِينًا مَرِيئًا ^(١) » .

وإذا كانت المرأة بعقد الزواج - ووضعيتها عندئذ تنبئ عن الاندماج - لا تفقد استقلالها في التصرف والتملك ، فأى فرد مع فرد آخر أو أفراد آخرين معه لا يفقد هذا الاستقلال بحال . لكن فقط يحد من هذا الاستقلال إذا اقتضت المصلحة العامة هذا التحديد . وإيست المصلحة العامة سوى مصلحة الآخرين معه في الجماعة .

إن إيجابية الإسلام في علاقة الفرد بالجماعة هي في تحديد الإسلام لوضعية الفرد ووضعية الجماعة معاً : فطالما الجماعة في نظره ليست معبوداً فوق الأفراد - لأنها الأفراد أنفسهم - فللفرد إذن حرية واستقلاله المنبثقان من ذاته كوحدة بذاتها . ولكن صلاحها بالوحدات الأخرى ، وهي وحدات الأفراد الآخرين : هي التي تتلى عليها رعاية حقوق هؤلاء الآخرين معه في الوجود المشترك والحياة المشتركة . ورسالة الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم وشرحها السنة الصحيحة لا تخرج عن تحديد هذه الحقوق ، التي على كل فرد في الجماعة أن يؤديها نحو الآخرين . وإذا أدى كل فرد هذه الحقوق لمن معه ، وصلته بالتسالي الحقوق التي له على الآخرين . ولذا أوجب الإسلام على المؤمنين طاعة رسالته قداً : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ^(٢) » . كما أوجب الاحتكام إليها عند النزاع والاختلاف قداً بعد ذلك : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ^(٣) » .

(٢) النساء : ٥٩

(١) النساء : ٤

(٣) النساء : ٥٩

إيجابية الإسلام في توجيه الفرد

معنى الإيجابية :

الإيجابية في حياة الإنسان أو حياة الجماعة ، هي دفع الإنسان إلى مباشرة أمر الحياة في وجوده الذي يعيش فيه . هي عدم انصراف الإنسان عن واقع حياته . هي تحيز الإنسان الطريق الذي يمارس به شأن الحياة ، ويواجه به أحداث الحياة ، ويستغل به نشاطه في الحياة ، ويحتم عليه السعي لصالح نفسه ، وحياته ووجوده .

الإيجابية في حياة الإنسان ليست إذن تركاً للحياة ، وبمبدأ عن أحداثها ، وعزلة للنجاة من أزماتها . كما أنها ليست إلغاء لإرادة الإنسان . إن الإيجابية في حياة الإنسان هي تفاعل الإنسان مع الحياة : يدركها وتدفعه إلى إدراكها ، ويعمل فيها ، وتملى عليه العمل فيها .

إيجابية الاسلام :

ولكن كيف يدرك الإنسان الحياة ؟ وكيف يعمل في الحياة ؟ . هنا يجيء حديثنا عن « إيجابية الإسلام » . فالإسلام ليس خالقاً لإيجابية الإنسان . وإنما هو موجه فقط في نموها ، وسير حركتها . إذ الإسلام ، يقر للإنسان إيجابية من نفسه ، وأن طبيعته ، كطبيعة أى شىء له قوة الحركة ، طبيعة سائرة غير جامدة . وهذه الطبيعة له بحكم خلقه وتكوين الله إياه . وموقف الإسلام عندئذ هو موقف للنظم فحسب في الإيجابية ، حدد له طريق إدراك الحياة ، وحدد له كيفية العمل فيها . ولذلك كان كتاب الإسلام ، وهو القرآن كتاب هداية : « **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** » (١) .

(١) الاسراء : ٩ .

إذا كان الإسلام موجهاً لحركة الإنسان وإيجابيته فقد سائر إذن فطرة الله التي فطر الناس عليها: «إن الدين عند الله الإسلام»^(١) .. «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّا كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢).

والإسلام، في توجيهه لإيجابية الإنسان عنى بتوجيه الفرد كفرد، وبوحدة الجماعة، وببأسكها، ثم بالاحتفاظ بشخصية الفرد وشخصية الجماعة معاً - بحيث لا يفتنى الفرد في الجماعة، ولا تفتنى الجماعة في الفرد، أى بحيث لا يظنى أحدهما على الآخر.

* * *

في توجيه الفرد :

وأول أمر حرص عليه في توجيه إيجابية الفرد إشعار الفرد نفسه بأن له إيجابية وبأن له ذاتية خاصة، يجب أن تترتب عليها آثارها . وتلك الآثار هي العمل والمسئولية من أجل الحياة . وهنا، لإشعار الفرد بقيمة العمل، جعل الإسلام العمل في سبيل الحياة والعيش، سعيًا من الإنسان في سبيل الله . فيروى أنه ﷺ كان جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة - وقد بكر يسى - فقالوا: ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ؟ فقال ﷺ : « لا تقولوا هذا ، فإنه ان كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويعنيها عن الناس ، فهو في سبيل الله ، وان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله » .

فالرسول هنا إذ يعتبر سعى الإنسان في سبيل عيشه وعيش أسرته بأنه سعى في سبيل الله - يوقظ الإنسان لذاتيته، وينبهه إلى أن تصرف الإنسان لإيجابيته في العمل أمر يقدره الإسلام حق قدره . وإذن سبيل الله ليس في ترك

(٢) الروم : ٣٠ .

(١) آل عمران : ١٩ .

العمل ، وإلا لكان لإسلام في توجيهه الإنسان مغفلا طبيعة الإنسان . إنها طبيعة إيجابية كما ذكرنا ، وموقف الإسلام منها موقف الموجه . وفي حديث آخر يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من طلب الدنيا حللا تعففا عن المسألة ، وسعيا على عياله ، وتعطفا على جاره ، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر » .

وإذا كان الحديث الأول قد أشعر الإنسان بقيمة العمل ، الذي هو نتيجة الإيجابية ، فالحديث الثاني كان توجيهها لإيجابية الإنسان في عمله : إذ العمل الذي يجب أن تتجه إليه إيجابية الإنسان هو الحلال منه . وكل عمل لا يؤدي الفير ، وكل عمل بعد عن مواطن الإيذاء أو شبهة الإيذاء ، فهو عمل لله وعمل صالح للإنسان . وكما وجه الإسلام إيجابية الإنسان في العمل إلى النوع الحلال منه ، وجهه أيضا في مجال العمل ودائرته . يقول القرآن الكريم : « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ^(١) » .

كل فرد مطالب بالعمل ، وكل عمل يجب أن يتجنب فيه صاحبه الإيذاء والإضرار بالتغير . وأرض الله واسعة ورحبة للتعجير والعمل . ليس الحلة أو القرية ، أو البلدهى موطن العمل المباح وحده ، ولا هى المتنفس لإيجابية الإنسان في العمل ، بل الأرض جميعها : « فَأَنْشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ^(٢) » .

تبادل الشعور بين الفرد والجماعة

تحدث الآن عن عواقب مخالفة الأمم للسنن الكونية . ويجدر بنا قبل الحديث في ذلك أن نقف على عوامل نمو الأمة ، والمبادئ التي تعتبر سنناً كونية طبيعية في قوة الأمة ونجاحها .

إن هذه العوامل وهذه المبادئ ترجع في جملةها إلى تبادل الشعور بين الأفراد من جهة ، والتزامين على شئون الأمة من جهة أخرى .. ترجع إلى أن يتمكن في نفوس الأفراد شعورهم بالجماعة وبالأمة ، ويمكن في نفس الراعي والحاكم الشعور بحقوق الأفراد في جماعته وأمته .

١ - فن تمكن الشعور بالجماعة والأمة في نفوس الأفراد يعطى هؤلاء الأفراد من أنفسهم وعلمهم وتفكيرهم قسطاً مختلف في السعة لصالح أمتهم : فإذا فكروا فليس لأنفسهم فحسب ، وإذا عملوا فليس ذلك محضاً لمنفعة أشخاصهم ، وإنما لأمتهم وجماعتهم النصيب الأوفر في التفكير والعمل ، إذا غلب على نفوسهم الشعور بالأمة والجماعة .

لا تظني روح الفردية عليهم ، ولا يتطلب حب الذات على حقوق غيرهم من أبناء أمتهم : فإن كانوا عمالاً راعوا حق العمل وحق أصحابه في الربح والإنتاج ، وإن كانوا تجاراً راعوا حقوق التعاملين معهم فلا يفسونهم ، ولا يخذعونهم . وإن كانوا مربين ومصلحين راقبوا الله وحق الوطن في توجيههم للناشئة .. وهكذا كل يرعى حقوق غيره إذا ما عمل أو فكر .

كما أن تمكن الشعور بالجماعة في نفوس الأفراد يكون من نتائجها أن يوقر الصغير الكبير ، وأن يمطف الكبير على الصغير ، وأن يرعى الغنى حقوق الفقراء .

والمتفوقون في العلم والجاه من هم أقل منهم في ذلك . ورعاية حق الغير هو المظهر الواضح لتمكن الشعور بمعنى الأمة في نفوس أفرادها ، وهو بالأحرى مظهر إشراك حق الجماعة والأمة في عمل الأفراد وتفكيرهم .

ولكون شعور الأفراد بحق الأمة والجماعة سنة كونية لنمو الأمة ونجاحها ، ركز الإسلام توجيهه وعنايته لتنمية هذا الشعور وتمكينه من نفوس الأفراد : فخطب من المؤمنين أن يكونوا إخواناً متحابين ، وطلب إليهم أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً : أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى أحد أعضائه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وحثهم في العبادة على أن يتقربوا إلى الله مجتمعين فحب إليهم صلاة الجماعة في كل يوم ، وأوجب عليهم الاجتماع في أهم مناسك الحج كل عام . ولم يدع وسيلة من وسائل تمكين شعور الأفراد بالجماعة والأمة إلا سلكه وأكده الأخذ به .

كما أيقظ في الجماعة الكبرى وهي البشرية قاطبة الروح المشترك بين أعضائها . وهي الروح الإنسانية : فوجه النداء إلى الناس ، وأرشدهم إلى أن القوارق بينهم من كونهم ذكوراً وإناثاً ، وكونهم شعوباً وقبائل ، وغير ذلك هي الوسائل لتعارفهم وتربطهم : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »

٢ - هذا عن تمكين الشعور بمعنى الأمة والجماعة في نفوس الأفراد . أما عن تمكين للشعور بحق الأفراد في الجماعة والأمة في نفس الراعي والحاكم ، فمظهر هذا التمكن العدل بين الأفراد : القوى ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى يأخذ الحق له . ثم محافظته على الحقوق الخاصة بالأفراد : على حرمة ملكيتهم ، وحرمة أسرهم ، ثم الإشراف على توجيههم لكسب قوتهم ، وإنتاجهم في الحياة .

وكما كان الحاكم أو كانت الدولة راعية لحقوق الأفراد ، ومؤمنة لهم على حرمتهم وحقوقهم ، كما كان لهذه الرعاية أثرها في شعور الأفراد بدولتهم وأمتهم .

٣ - وهناك بجانب تبادل الشعور بين الأفراد في الأمة من جهة وراعى هذه الأمة من جهة أخرى، عامل آخر لا يقل أهمية عنه في نمو الأمة ونجاحها هو: أن يكون أصحاب التوجيه في الأمة أمثلة لما يوجهون به الأفراد: السياسيون يكونون أمثلة لممارسة الحكم الصالح العادل، ورجال الدين يكونون أمثلة للتدين والخلق الكريم، وأصحاب المعرفة يكونون أمثلة لتحرى الحق والحكم الصحيح.

لا يبتغى السياسيون الثراء والجاه على حساب حكم الأفراد، ولا يقصد رجال الدين من عظمتهم الاحتراف بالعظة. ولا أصحاب المعرفة ان يتجروا بها.

إذا تمكن الشعور بحق الجماعة في نفوس الأفراد، وتمكن الشعور بحقوق الأفراد في نفس الراعى والحاكم، وكان أصحاب التوجيه في الأمة أمثلة عملية لما يوجهون به الناس، كانت الأمة عندئذ سائرة على المنهج الطبيعي لحياة أية أمة قوية ناجحة.

* * *

إن هذه العوامل هي السنن الكونية لرق الأمة ونموها ونجاحها. إن الأمة إذا انخرفت عنها لا تسلك حينئذ سبل الأمم الناجحة. إذا ضعف شعور الأفراد بأممهم وجماعتهم، وطغت روح الفردية على نفوسهم، وسيطر حب المنفعة الذاتية على تصرفاتهم وتوجيههم في الحياة، فإنهم عندئذ لا يكونون أعضاء في بناء أمة، وإنما يكونون حلقات مستقلة يجاور بعضها بعضاً، ويحتمك بعضها ببعض، وينفر بعضها من بعض. ليس لهم رأى عام، وإنما لهم آراء متعددة. وليس لهم كفاح نحو هدف عام، وإنما كفاحهم لتحقيق الحياة الخاصة لكل واحد منهم. وكثيراً ما يكون هذا الكفاح من بعضهم ضد بعض. وهنا يسهل على الأجنبي أن يسيطر على مثل هؤلاء الأفراد في رقعتهم التي يقيمون عليها، ويسهل عليه أن يستغلهم لمصلحته بأيسر الطرق وأرخص الوسائل.

إذا ضعف شعور الأفراد بمعنى الجماعة والأمة كثر الاعتداء فيها من بعضهم على بعض ، وأتجه تفكير الكفاح فيهم إلى الشر والانتقام ، بدلاً من أن يوجه إلى الخير . كل محولانهم تتجه إلى الخديعة والتأثر . لأنهم ركزوا حينئذ نشاطهم البدني والعقلي في الحصول على المنافع الخاصة والحفاظة على الكيان الخاص ، دون نظر إلى المشاركين معهم في أرضهم ، وانتمهم ، وسائر القومات الأخرى للجماعة . وكذلك إذا ضعف الشعور عند الحاكم والراعي بمقوق الأفراد ، فإنه لا يتصرف تصرف الحريص على أبناء هذه الأمة وعلى حقهم في الحياة ، وإنما يكون تصرفه أقرب إلى استغلالهم منه إلى خدمتهم . ويكون هدفه صالح نفسه على حساب صالحهم .

وإذا سلك أصحاب التوجيه في الأمة مسلكاً لا يتفق مع طبيعة التوجيه الذي ينسبون إليه ، فإنهم يكونون عندئذ محترفين بالقيم وبالمثل العليا . وويل لأناس احترف الموجهون بينهم بالمثل والقيم الرفيعة .

إن السنن الكونية لحياة أية أمة من الأمم هي إذن الشعور المتبادل بين الأفراد من جانب ، وبين ممثل الجماعة من جانب آخر ، وهو ذلك الراعي العام . وكل عمل مثمر في أية أمة يكون حتماً نتيجة لهذا الشعور : سواء من قبل الأفراد أو من قبل الحاكم العام .

وإن مخافة الأمم للسنن الكونية تتمثل بالتالي في ضعف هذا الشعور المتبادل أو في انعدامه . وإذا كانت القوة ، والنمو ، والتماسك ، والنجاح في الجماعة من مظاهر الشعور القومي الذي ذكرناه ، فإن الوهن والاضمحلال ، والقشل في الحياة تتأجج لضعف هذا الشعور عند الأفراد وعند الحاكم الذي يعد الممثل الأعلى للجماعة .

الإسلام قصد أن يكون الفرد قوياً ، وإلى أن تكون الجماعة قوية . وجعل قوة الفرد في سيطرة عقله على مطالب بدنه ، وقوة الجماعة في سيطر معنى الجماعة

تعلى نفوس الأفراد . وهو إذ يقصد إلى قوة الفرد وقوة الجماعة يهدف أخيراً إلى خير الفرد وخير الجماعة، وإلى أن يعيش الفرد معززاً مكرماً، وتعيش الأمة عزيزة كريمة على نفسها وعلى غيرها .

هدم أية أمة لا يكون إلا عن إضعاف شعور الأفراد بمعنى الأمة والجماعة ، وطريق ذلك تمكين حب المنافع الشخصية في أنفسهم. وغالباً ما يكون ذلك على حساب مصلحة الأمة أو مصلحة الآخرين .

وبناء أية أمة لا يكون إلا عن طريق تقوية الشعور بالأمة والروح العامة في الجماعة بين الأفراد والمواطنين ، وخير طريق لهذا البناء هو مارسته الإسلام في عبادة الناس لربهم ، وفي معاملات بعضهم ببعض .

وحدة الجماعة

الجماعة الإسلامية ذات هدف موحد :

إن الجماعة لا تكون جماعة إلا إذا أهدت على هدف ، وتمثلت صورة هذا الهدف في نفس كل فرد من أفرادها تمثلاً واضحاً . وقبل ظهور الإسلام قامت جماعات إنسانية ، وانحلت جماعات أخرى . وبظهور الإسلام قامت الجماعة الإسلامية . فأى شيء وحد هذه الجماعة ؟ أو أى هدف تكون حوله ومن أجله المسلمون ، حتى صاروا جماعة معينة ؟ وما هى إيجابية الإسلام نحو وحدة الجماعة المسلمة ؟ . إن وحدة الهدف فى الجماعة الإسلامية هى عبادة الله الواحد : « ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، خَافِقٌ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ^(١) » .. وسبيل الله هو سبيل الوحدة إذن بين المسلمين . فالله غاية الجماعة الإسلامية ، وسبيله هو السبيل لهذه الغاية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى نَجَارَةِ تَنجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(٢) » .
ولكن ماهو السبيل إلى الله ؟

السبيل إلى الله إيمان وعمل ، إيمان بالله ورسوله ، وعمل بما جاء به الله ورسوله .. إيمان بالله ورسوله حتى يكون الله ورسوله أحب شيء لدى الفرد ، وعمل بما جاء به الله ورسوله حتى تكون الطاعة لما جاء به الله ورسوله فوق رغبات نفسه التى بين جنبيه ، وفوق إغراء المال الذى فى يده .

إيجابية الإسلام فى وحدة الجماعة عن طريق عبادة الله الواحد : ليست فحسب نصحاً للأفراد بأن يعبدوا الله ، ولكن فى حملهم على أن يترجموا هذه العبادة لله وحده فى سلوكهم ، حتى يكون المؤمن للمؤمن كالمؤمنين بشد بعضه بعضاً . ولا يشد

(٢) الصف : ١٠٠ - ١١٠ .

(١) الانعام : ١٠٢ .

البناء بعضه بعضاً إلا إذا كان هناك انسجام في وضع لبناته ، وتوازن بين صفوفه .
ورسالة الإسلام - التي تعبر عن سبيل الله - هي رسالة توازن وانسجام بين الأفراد .
التوازن أساس تكوين الجماعة الإسلامية :

وعباداة المسلمين لله هي تنفيذ هذا التوازن والانسجام . ولا شيء أدل على
التوازن من الإيثار ، كما أنه لا شيء أدل على عدم الانسجام من الأثرة . وما
أوجبه الإسلام من عبادة وأحكام هو طريق التوازن ، وما حرّمه ونهى عن فعله
هو طريق النفرة ، وعدم الانسجام .

بين الإنسان والإنسان علاقات . فإذا سيطر الإيثار على كل منهما كانت الحبة
وكان التوازن . وإذا تغلبت الأثرة بينهما كانت الكراهية وكان الاحتكاك وعدم
الانسجام بينهما .

إن الإيثار ليس رغبة ولا أمنية ، وإنما هو مجاهدة وجهاد . مجاهدة في حل
النفس على أن تدرك حق غيرها في المشاركة في الحياة ، وجهاد في أن تعطى هذا
الحق عملياً لغيرها في صورة فيها وفاء الوجود المشترك . الإيثار هو التغلب على تحكم
النفس : تغلب على طمعها ، وتغلب على حقدها .

فإذا وجدت النفس الإيثارية وجدت النفس المصقولة ، وأصبحت كالبينة
المشذبة المستقيمة ليس فيها اعوجاج ولا تنوء ، فإذا ضمت إلى مثلتها كان الضم
مستوياً وأبقى .

وإذا كان الإيثار مجاهدة وجهاداً ، فالنفس لا تقبل عليه إلا إذا كانت لها غاية .
تمثلها تمثلاً واضحاً وتقر عيناً بإدراكها .

وسبيل الله هو سبيل الوحدة ، وسبيل القوة ، وسبيل البقاء . ولن يصل إنسان
ما إلى الوحدة في نفسه وفي جماعته ، وإلى القوة في نفسه وفي جماعته ، وإلى البقاء
في نوعه وفي جماعته ، إلا بالتحكم فيما تدعو إليه نفسه من نزعات ، وفيما تطلبه من جامه .
مثل : في مال . . أو ولد .

تماسك الجماعة

اسس قيام الجماعة الاسلامية :

قامت الجماعة الإسلامية على أسس :

١ - على أن تتجه عبادتها إلى معبود واحد : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ^(١) » .

٢ - وعلى أن تبقى في سلام مع غيرها من الجماعات الأخرى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ^(٢) » .

٣ - ولكن إذا هوجمت من جماعة أخرى غيرها يجب عليها أن لا تستكين لهذا الهجوم : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ^(٣) » . أو إذا اعتدى عليها يجب أن ترد الاعتداء : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ^(٤) » .

هذه هي تعاليم الإسلام في شأن قيام جماعة المسلمين في علاقتها مع غيرها من الجماعات الأخرى .

* * *

وإن ما أتى به الإسلام في شأن تماسك هذه الجماعة وبقائها صلبة قوية - فنبتق أكثر من ذات الإيمان بالله ، ويعود غالبه إلى الجانب الروحي في الإنسان .

(٢) البقرة : ٢٠٨ .

(٤) البقرة : ١٠٤ .

(١) النساء : ٣٦ .

(٣) البقرة : ١٩٠ .

فالإيمان بالله - لاغيره - هو الذى ربط بين الفرد والفرد فى الجماعة الإسلامية . فيجب إذن أن يكون هذا الإيمان ملحوظاً فى الاستمرار فى العلاقة .

الولاء بين المسلمين :

ويجب بناء على ذلك أن لا يهجر المؤمن بولائه وأخلاقه مؤمناً آخر معه ، ويتجاوز بهذا الولاء والإخلاص إلى من هو عدو لها معاً : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاةً ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير » (١) .

وتعبير القرآن الكريم هنا فى صورة النهى القاطع : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » : ثم حكه على أن من يصنع ذلك ليس على الحقيقة من المؤمنين بالله فى شيء : « ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء .. » ثم هذا التحذير القوي للمخالف من رب الكون كله سواء فى الحياة القائمة أو الحياة المنتظرة : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » - كل هذا يوضح إلى أى مدى حرص الإسلام على تماسك الجماعة الإسلامية وبقائها قوية ، بعد أن قامت وأصبحت لها شخصيتها الخاصة .

إن تجارب الأيام فى تاريخ البشرية تؤكد أن العامل النفسى فى حياة الإنسان والجماعة أقوى من أى عامل آخر سواء ، إذا ضعفت نفس الفرد أو ضعف الترابط النفسى بينه وبين غيره كان التلاشى والفناء للفرد نفسه وكانت القطيعة بينه وبين غيره . وبالعكس تبرز صورة الوجود والحياة واضحة لمن قويت نفسه ، وكذلك الجماعة التى قويت الصلات الروحية بين الأفراد فيها .

وولاء المؤمن للمؤمن الذى يدعو إليه القرآن هو أكثر من صلة نفسية أو

أى صلة وأكثر من شعور روحى متبادل قائم على التعاطف وعدم النفرة بين فرد وآخر . إن هذا الولاء هو الإخلاص فى العلاقة ، هو إثبات الصديق للصديق ، هو الإحساس القوى بالسكبان المشترك للإثنين معاً .

والإسلام بهذه الآية القرآنية لاينهى عن علاقة المودة بين المؤمن وغير المؤمن . لا ! بل الإسلام يركز النهى هنا فقط فى علاقة المودة والولاء على علاقة خاصة . وهذه العلاقة الخاصة أن يؤثر المؤمن بولائه وإخلاصه ومودته عدو المؤمنين جميعاً ، وهو المعاند لهم المنكر حقهم فى الحياة كجماعة خاصة وهو من سيئه بالكافر .. يؤثر بهذا الولاء والإخلاص والمودة دون المؤمنين معه فى الجماعة والمشاركين لوجوده الخاص كمؤمن . وهذا هو صريح قوله : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » .

وبما يجب على المؤمن بنحو المؤمن من الولاء والإخلاص ، على هذا النحو الذى بينه القرآن الكريم تقوم الأسباب الأخرى فى تماسك الجماعة وصلاتها . إذكل تصور للمؤمن وكل عمل يصدر عنه عندئذ هو مبنى على هذا الإخلاص فى العلاقة .

إذا وجد هذا الاخلاص فى العلاقة فلا يتصور مؤمن عندئذ مؤمناً آخر تصوراً يشينه ، وحينئذ لايعتابه ولاينم ويشى به ، ولايسمى بالفساد بينه وبين غيره ولايقزع منه ويخافه ، ولاينزع الثقة منه ، ولايحترقه أو بسخر منه .

كما لايصدر من مؤمن عندئذ مؤمن آخر فعل يؤذيه إيذاء نفسياً أو بدنياً أو يضره فى ماله وولده ، أو فى عرضه وحرمانه ، وحينئذ لا يسبُّه ويشتمه ، ولا يتبعه بالإيذاء البدنى فى صورة ما ، ولا يسرق ماله أو يخذله ويقشه فى التعامل معه ، ولا يسىء توجيه ولده ويحرضه على الانحراف والفساد ، ولا ينتقص من حرمة فى زوجته أو بنته .

وكل ما أتى به الإسلام في آدابه ووصاياه الخلقية ، سواء في جانب الترك أو الفعل ، هو في واقع الأمر تفريع على الولاء الذي طلبه بين المؤمن والمؤمن بصفة كون كل منهما مؤمناً ، وهو ذلك الولاء الذي عبر عنه في صورة هي تعبير عن الواقع ، أو عما يجب أن يكون : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض^(١) » .. كما عبر عنه في الصورة الأخرى التي أوردناها ، وهي : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .. »

لم تقم الجماعة الإسلامية بالأمس لتنفى اليوم أو غداً . إن قيامها كان نتيجة لرسالة من الله . وكذلك بقاؤها وتماسكها ذو صلة قوية بالإيمان بالله : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ^(٢) » .

إن الإيمان بالله هو الإخلاص للغير ، ودفع المدوان ، وتعاون على العمل المنصر في الحياة .

الميل الاجتماعي وطريق إنمائه

إن استقلال الفرد من الإنسان حقيقة موجودة غير منكورة ، وإن كيانه الذاتي وخصائصه المميزة أمر واقعي . لكن بحكم طبيعته الإنسانية وما لها من ميول عديدة يتجه بميل خاص في النوع الإنساني نحو غيره من الأفراد الآخرين ، وهو ما يعرف بالميل الاجتماعي .

وهذا الميل الاجتماعي - ككل ميل في طبيعة الإنسان - هو اعتماد يقبل الضعف إلى حد أنه يبدو متلاشياً ، وتبدو معه الذات وكأنها لاصلة لها بالآخرين إطلاقاً ، إن في تصرفاتها وسلوكها معهم ، أو في أحاسيسها بالنسبة لهم . ويقبل النمو والقوة إلى درجة أن يضحي صاحب هذا الميل القوي في سبيل فرد آخر أو في سبيل قيم ومبادئ عامة .

و « الأناني » - كما يطلق عليه - ليس إلا الفرد الذي كاد ميله الاجتماعي يغيب تماماً في كل عمل وتصرف يأتي به ، وفي كل مسلك يسلكه إزاء الآخرين . تفكيره حول ذاته وحدها ، وسعيه في الحياة من أجل الذات وامتعتها فقط ، ولذته أو ألمه بسبب ما يتصل بهذه الذات من مصادر اللذة والألم في الحياة الإنسانية دون ما يلحق غيرها في المجتمع معها .

و « الزاهد » في متع الحياة المادية من أجل القيم العليا ، والمضحى أو « المستشهد في سبيل الله » ليس إلا ذلك الفرد الذي دفع إغراء زينة الحياة التي نعيش فيها واكتفى من هذه الحياة بما يحفظ عليه نشاط العمل لتحقيق أهداف أخرى وراء ذاته ، وهي المبادئ والقيم الإنسانية التي يعم نفعها مجموعة من الناس في وطن معين أو البشرية عامة . ولأن نفع هذه المبادئ والقيم عاماً وليس للفرد وحده : توصف دائماً بأنها « عليا » أي فوق مصلحة الفرد وذاته .

فالميل الاجتماعي عند الأول — وهو الأناني — ضعيف لا يمكن معه قيام مجتمع ، فضلا عن أن يكون مجتمعا متماسكا.. لا يمكن معه أن يكون هناك ترابط مع غيره من أفراد البشر ، لأن الأساس المشترك للترابط مفقود أو في حكم المفقود . وهو أساس « الاعتراف بالغير والآخرين معه » .. ذلك الأساس الذي يقوم عليه التبادل ، والتعاون ، والتضامن . وفي النهاية يؤدي إلى تكوين إحساس قوى بالمصالح المشتركة وصياقتها والدفاع عنها . وعندئذ فقط يبدأ المجتمع ، ثم يتلو هذه البداية نموّه وتزايد العلاقات بين أفرادهِ .

... بينما هذا الميل الاجتماعي عند الثاني — وهو الزاهد أو اللضحي أو المستشهد في سبيل القيم والمبادئ العليا — يبلغ ذروته . لأن أي واحد من هؤلاء لم يركز تفكيره وضعيه في الحياة من أجل الذات وحدها . بل على العكس تجاوز في هذا التفكير وفي هذا السعي : الذات نفسها وتخطاها كي يعيش في رحاب أوسع في سبيل قيم ومبادئ ، تعلو هذه الذات وترتبط بمصالح الآخرين ارتباطاً مباشراً . ويكفي أنه يزهد في المتع المادية للحياة ليركها لغيره ، أو يضحي بماله وولده وبما يملك من طاقات في سبيل الآخرين ، أو يضحي بنفسه ويستشهد ليعيش الآخرون بعده في المجتمع عيشة أكرم قوامها التخلص من انحرافات الأنانية .

ولأن الزهد في متع الحياة المادية ، والنضحية بالمال والولد ، والاستشهاد والموت في سبيل المبادئ والقيم العليا .. هي نماذج إنسانية لبلوغ الميل الاجتماعي قته عند الفرد .. لا يطلب أن يكون جميع أفراد المجتمع هذا النموذج . لأن ذلك مطلوب غير واقعي ، تقف عقبات كثيرة في طريق تحقيقه ، وهي عقبات « الأنانية » والمكوف في التفكير ، والسعي على الذات وحدها وما لها من شهوات وأمانى . والذي يطلب هو فقط : تحقيق مستوى من الميل الاجتماعي يقوم معه المجتمع ويبقى متماسكا . ولكن تحقيق هذا المستوى لا يتم إلا بالحد من الأنانية ، عن طريق حل

الأفراد - بوسائل مقبولة يرضونها - على الاعتراف بالآخرين ، والمشاركة فيها
بينهم في السراء والضراء ، وتبادل المصالح المسادية ، وقبلها تبادل العواطف
الإنسانية .

وإذا نحن قرأنا هذه الآيات القرآنية من سورة آل عمران :

١ - « زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ،

« من النساء ،

« والبنين ،

« والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ،

« والحليل المسومة ، والأنعام والحرث ،

« ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المسآب .

٢ - « قل أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ،

« للذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ

مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد .

« الذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا ، فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَقْنَا عَذَابَ النَّارِ .

« الصَّابِرِينَ ،

« وَالصَّادِقِينَ ،

« وَالْقَانِتِينَ ،

« وَالْمُتَّقِينَ

« وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » (١) .

... إذا نحن قرأنا هذه الآيات نجد القرآن الكريم يصنف الناس صنفين :
صنف يحب نفسه وتطغى عليه أنانيته ، ومن أجل ذلك تغريه متع الحياة ويتوسع
في التمتع بها ويركز عليها ، ولا يكتفى منها بما يحقق له أسباب الوجود والبقاء
فحسب ، كي يوجه النشاط الزائد على تحصيل أسباب وجوده : إلى خير مجتمعه
وأمته أى إلى خير الآخرين معه .

والتوسع في متع الحياة المادية وهى النساء ، والبنين ، والأموال على اختلاف
أنواعها نقدية أو عينية يسميه القرآن : « شهوات » . فطلب متع الحياة في ذاتها
لحفظ البقاء أمر مفروغ منه ، وواجب لمواصلة سعى الانسان لتحقيق القيم والمبادئ
العليا . ولكن الأمر الذى لا يرحب به القرآن هو التوسع في هذه المتع أو هو
الوقوع تحت إغراء مفاتن : « الشهوات » كما يعبر القرآن نفسه ، بحيث يقصر
سعى الفرد عليها من أجل ذاته وحدها . والمعيب إذن ليس الاتصال بالمرأة ، ولا
فصل الأولاد ، ولا اقتناء المال ، لأن ذلك أمر فطرى . وإنما الانحراف فى كل
ذلك . ومميار هذا الانحراف هو الاغراق فى الملذات والمتع .

أما الصنف الثانى من الناس ، وهو يرضى عنه القرآن ، فهو ذلك الذى آمن
بالله . . آمن بالقيم العليا والأهداف التى تتجاوز ذاته ، والذى يتقى الفواحش ، وهى
الانحرافات فى التمتع بالحياة المادية والوقوع تحت إغرائها ، والذى يصبر عند
الملمات والأزمات فلا يفقد إيمانه ولا يتشكك فى تمسكه بالمبادئ والمثل ، والذى
يصدق فى إيمانه وتقواه ، ويصدق كذلك إذا ما تحدث أو نصح ، ولا يندع غيره
بالكذب والاختلاق ، والذى ينفق من ماله فلا يبق منه إلا ما يكتفى حاجته ،

في سبيل مجتمعه وأمته . في سبيل بقاء هذا المجتمع وإعزاز الأمة إذا مادعا الداعي .
وتأكدت الحاجة إلى ذلك .

وهذا الصنف بأوصافه الخاصة يصور أصحاب الميل الاجتماعي الذين خرجوا
بنشاطهم عن دائرة الذات ، ولم يقوموا تحت إغراء مفاتن الشهوات والمتع المادية
في الحياة .

* * *

والشأن لو ترك الناس لطباقتهم وفرائزهم فإنهم ينهبون النهج الأول
ويسلكون في الحياة مسلك الوحدات المستقلة التي ينكر بعضها بعضاً ، ويخاصم
بعضها البعض الآخر . لأن الكل لا يريد الحفاظ على الذات فحسب وإنما يدفع
بحكم الإغراء إلى التوسع في تحقيق مطالب الذات ، وهي لا تنتهي . وهذا التوسع
يؤدي حتماً إلى الاعتداء على حق الآخرين في الحياة . ومقتضى غريزة - المقاتلة - في
الطبيعة البشرية والحيوانية على السواء يثير في الذات المعتدى عليها الدفاع عن
النفس . وهذا معناه الاشتباك والخصومة بين المعتدى والمعتدى عليه . والواقع
عندئذ أن كل فرد ممتد على غيره .. وممتد عليه من غيره ، حسب الاختلاف في
القوة والصف .

ويشير الشق الأول من الآيات السابقة إلى ذلك في قول الله تعالى : « زين
للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب
والفضة ... »

* * *

ولأجل الخروج من دائرة « الذات » في التفكير ، والبلوك ، والإحساس ،
إلى دائرة الاعتراف بالغير والتعاطف بين الإنسان وتبادل المصلحة بينهما والحفاظ

عليها والتماسك دويماً من أجل البقاء ، والبقاء للقوى ... كان لابد من أن توجه الطبيعة البشرية توجيهاً قوياً يحقق لها هذه النقلة أولاً ، ثم تلتزم برعايتها بحيث تحب للغير ما تحب للنفس ، وبحيث يكون الفرد للفرد كالبنديان يشد بعضه بعضاً ، وبحيث ينجذب الفرد نحو الفرد ويتداعى كل منهما للآخر عند اللزمات ، كما تداعى أعضاء الجسم الواحد بعضها لبعض لدفع العلة والبقاء على ترابطها .

وقاعدة هذا التوجيه هي : « الإيمان بالله » . وليس غير الإيمان بالله من طريق ينسب الميل الاجتماعي في الطبيعة البشرية ويخفف فيها حدة : « الأنانية » وطفيان : « الذات » .

لأن الإيمان بالله نقل للإنسان من مخالب الحياة المادية وتشابكها مع الذات إلى قيم عليها هي القيم الإنسانية في أرفع مستواها . فإذا سعى الإنسان المؤمن عندئذ سعى في دائرتين : دائرة دنيا وهي التي تلتصق بذات الفرد ، ودائرة عليا وهي ماتم هذه الذات وغيرها من أفراد الانسان . ومذلك يكون هناك توازن على الأقل في نشاط الفرد ويخرج عن التركيز في دائرة الذات لاغير .

والإيمان بالله ليس تصديقاً بقيم عليا في المجتمع الإنساني فحسب ، وإنما هو تطبيق وسعى لتحقيق هذه القيم في حياة الفرد - كل فرد . وأولى هذه القيم : الاعتراف بالغير والترابط معه على أساس إنساني متساوٍ في الاعتبار والقيمة .

ومن أجل ذلك اجبداً البعض الآخر من الآيات التي ذكرت هنا بهذا الإيمان في قوله : « الذين يقولون : ربنا إننا آمننا ، فاغفر لنا ذنوبنا وقتنا هذاب النار . . . »

ولكى يكون الايمان بالله حقيقة واقعة في حياة الفرد المؤمن . كان دور مايسى بالعبادات التي هي الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج : في الممارسة والتطبيق .

وهذه العبادات ليست رسوماً وصوراً تؤدى . وإنما هي في جانب الصلاة : تفرغ النفس من سيادة الأنانية وتمكك الذات في اندفاعها نحو إغراء متع الحياة المادية . وفي جانب الصوم والزكاة : مباشرة إيجابية في : « الاستغناء » و « التنازل » للغير . وفي جانب الحج : لقاء على بين الأفراد وتماهد على الترابط في حدود القيم الانسانية وحدها ، دون خضوع لإغراء المتع الدنيوية وزينة الحياة . ومن هنا كان اقتراب الانسان في الحج إلى الفطرة والبعد عما يميز إنساناً عن آخر بالزى والمظهر أمراً واجب الاتباع .

* * *

وصوم رمضان ليس إمساكاً فحسب عن مأكل ومشرب ، ولا إمساكاً كذلك عن لغو الحديث واقفال النفس قرة معينة في اليوم . وإنما هو قبل كل شيء : « اكتفاء » بأقل ما يمكن في معيشة الإنسان مما يحتاجه الإنسان في حفظ بقاء ذاته . حتى إذا تازمت أوضاع المجتمع الاقتصادية يوماً ما . . كانت هناك طاقات إرادية لدى الأفراد تدفع للتنازل للغير ، والاستغناء عن بعض ما يملك الفرد ، بالمستوى الضروري في المعيشة .

ولذا كان للصوم الذي هو عبادة وقرين لله آداب في التطور والصحور - أي عند امتثاف الأكل والشرب - يجب اتباعها . وتستهدف هذه الآداب هي جعلها تحقيق معنى : « الاكتفاء » بالأقل وبالضروري في حياة الإنسان ، كي تبقى بمد ذلك : فضلة تسد حاجة الغير .

وقيمة صوم رمضان لانقف عند حد الشهر المعين . بل تتجاوزه إلى الحياة الإنسانية للفرد الصائم عامة ، بحيث يكون رمضان في كل عام تجربة تقوى في حياة الانسان معنى الاكتفاء ، وليس من الوجهة النظرية ، وإنما في التطبيق والممارسة .

ومن هنا كان تقييم الحديث الشريف لصوم رمضان : « كل عمل ابن آدم له - إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به » . وما كان لله فهو للجمتمع . . والأمة . . . والإنسانية .